الثقافة في تونس

من قديم أدرك الفنيقيون في تجوالهم البحري طيب مناخ تونس فألقوا سفن ترحالهم واستوطنوا سواحلها متخذين منها الوطن والمقر ، وأحدثوا بها ـ بعد دهر وحين ـ محطهم الأكبر مدينة « قرطاجنة » وجعلوها أم البلاد .

ومن هنالك انتشر القرطاجنيون فاتحين ومعمرين ومعلمين للشعوب المغربية والابيارية ، وبثوا بينهم وسائل تمدينية وأسباب رقي ما بين فلح الأرض ، وصناعة المعادن ، وركوب البحر .

فهذا (ماجن) أحد شيوخ فلاحي قرطاجنة يضع أول كتاب عرف في فن الزراعة والاغتراس ، ولم يجد الرومان بداً من نقله الى لغتهم السلاطينية حينما فتحوا البلاد لإعجابهم بهذا الأثر الفريد وفقرهم الى تعاليمه .

وما كان القرطاجنيون ليرتضوا لأنفسهم أن يكونوا معمرين للأرض فحسب ، بل انهم خصوا الوعي الفكري بأوفر نصيب ، وشاركوا من تقدمهم في هذه الرسالة البشرية .

* * *

ولما بدد الرومان القرطاجنيين من افريقية وخلفوهم بها لم يجدوا مندوحة عن تقليد أسلافهم في علومهم ، والانتفاع بتجاربهم ، والاستفادة من خزائن كتبهم الفنية ، والعمل بوسائلهم في التمدين وتعمير الأرض .

وعلى أنقاض العاصمة الفنيقية رفع الرومان قرطاجنة جديدة ، اجتهدوا في جعلها ـ بعد رومة ـ ثانية لقاعدة ملكهم الواسع ، فتزخرفت بالمباني والهياكل الضخمة ، وامتد نفوذها السياسي والأدبي الى مغارب الأرض ، وقد أخرجت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

البلاد على عهدهم علماء أفذاذاً من أبناء تربتها مثل « يوبا الثاني » الملك البربري والمؤلف المبدع ، ومثل « أبولي » صاحب التصانيف الفلسفية الفكاهية ، وغيرهما .

ثم خلفتها (قرطاجنة البيزنطية) وقد شغلتها الحروب الداخلية والنزعات المذهبية عن الاشتغال بالاعتناء بالوعي القومي ، لولا قيام رجال ناضلوا عن المبادئ الدينية وسعوا جهدهم في محاربة الوثنية وفي اثبات مزايا الاعتقاد والتمسك بعرى الدين ، وكفاح المقاومين لنشر مبادئ العقيدة ، وفي مقدمة المدافعين المخلصين لهذا العمل الكبير « أوقشطين » الذي ناضل عن الاعتقاد ورفعه الى درجة عالية من البحث ، وقد عرفه علماء العرب وذكره ابو عبيد البكري في « مسالكه » .

* * *

في منتصف القرن الأول للهجرة أتيح للعرب أن ينصبوا سلطانهم على بلاد افريقية ، ولأول وهلة من فتحهم أنشأوا « قيروانهم » فكان لهم في آن واحد مركزاً حربياً ، ومحطاً لرحالهم وعيالهم ، وموطناً لبث لسانهم ومبادئ دينهم .

ومنه امتد سلطانهم فعم المغرب بأجزائه ، وعبر العدوة الأوربية فدخل الأندلس وأواسط فرنجة ، ومن ناحية أخرى انتشر الى السودان فأدخل في حظيرة الاسلام كامل قارة افريقية المعروفة وقتئذ .

من القرن الثاني للهجرة ابتدأ اهتمام أبناء القيروان ومدينة تونس بحمل العلم ، فقصدوا موارده بالمشرق : كالمدينة ، والبصرة ، والكوفة ، ثم دمشق وبغداد والفسطاط ، وملأوا من العرفان أوطابهم وعادوا الى وطن ولادتهم لبث ما لديهم بين أبناء جلدتهم ، وقد نبغ من بين الرعيل الأول أفذاذ مبرزون وصلوا بالعلم التشريعي الى أقصى درجات البحث والاستنباط والتخريج ، مثل : علي بن زياد تلميذ مالك ودفين تونس ، وأسد بن الفرات صاحب مالك ، وأبي يوسف ، ومحنون بن سعيد ، وسليمان بن عمران وغيرهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما كان اشتغالهم بادئ بدء بالفقه (الحقوق) الا لمسيس حاجة العالم الاسلامي إذ ذاك لتنظيم الهيئة الاجتماعية الجديدة ، وتدبير سياستها الشرعية على أصول نظام الدين ، إذ كان الاسلام دينا ومدنية في آن واحد .

ولما تمهدت وسائل التشريع وأبحاثه ، اتجهت الطبقة التالية الى العلوم العقلية والرياضية ويرجع الفضل في ظهور هذه الحركة الجديدة الى رجلين يجب ذكر اسميهما بكل احترام : أعني الطبيب اسحاق بن عمران الذي أشاع الفلسفة في القيروان وفسر غامضها كما نشر علم الطب وما يتفرع عنه من فنون الحكمة والصيدلة ـ والثاني هو الأديب الكبير والكاتب البليغ أبو اليسر ابراهيم الشيباني .

وقد ساعد الأمراء الأغالبة على انقاذ هذه الحركة العقلية المباركة وعلى نشرها بين طبقات الشعب بتأسيس أول جامعة افريقية للعلم والترجمة ، وبث المبادئ العقلية في الأوساط المغربية ، وهي (بيت الحكمة القيروانية) التي ترأسها ابو اليسر الشيباني المتقدم ذكره (حدود سنة ٢٦٥ هـ = ٨٧٩ م) .

وقد جلب اليها الأغالبة الكتب من أطراف العالم العربي من العراق والشام ومصر ، كما نصبوا بها ثلة من القساوسة المسيحيين استقدموهم من صقلية التابعة لملكهم ؛ فانكبت تلك الثلة على ترجمة مؤلفات يونانية ولاتينية في الفلسفة والتاريخ والطب والنبات ، والمظنون ان من ضمنها قسماً من مصنف (بلينوس الأكبر) في التاريخ الطبيعي المتعلق بالحيوان والنبات ، وكانت الترجمة تقع بمعونة رجال افريقيين متضلعين في العربية .

وقد حفظ لنا التاريخ بعض أسماء هؤلاء المعتنين بالتعريب كأبي سعيد الصيقل والفتى طريف ، فانهما حينما سقطت دولة بني الأغلب من افريقية التحقا ببلاط بني أمية بالأندلس ـ على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الثاني ـ اللذين شادا النهضة الكبرى بالأندلس ، فكان انخراط هذين القيروانيين في سلك البلاط القرطبي أداة تلقيح وعاملاً كبيراً في ازدهار الحركة العلمية الفكرية باسبانيا على غرار من تقاليد القيروان وأصول تعاليمها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا يغيب عنا أن نسوق هنا ما كان لجماعة من أبناء اليهود الافريقيين من الاهتمام بالأخذ عن علماء « بيت الحكمة القيروانية » أو التدريس بها لفنون الفلسفة والطب والفلك والتقويم ، وفي مقدمة هؤلاء : الطبيب المشهور (اسحاق بن سليمان الاسرائيلي) ، والطبيب (دونش ـ ويقال أدنيم ـ بن تميم المعروف بالشفلجي) وزميله (موسى بن العزار) وسواهم كثير ، فانهم قاموا بوضع أمهات من الكتب فى الفلسفة والطب والفلك ، وقد حولها بعضهم بعد ذلك من العربية الى اللغة العبرية .

ومن تلاميذ هذا الرعيل الأول عالم اسرائيلي يدعى (نسيم بن يعقوب القيرواني) فانه فاق أقرانه في علم الهيئة ورصد الكواكب حتى ان الأسئلة كانت ترد عليه من يهود العراق في المشرق ، ومن الأندلس والمغرب يستفتونه في توقيت المواسم الدينية ، إذ لم يكن من بينهم من هو أعلم منه بهذا الشأن .

وما زالت بيت الحكمة تضطلع بأداء رسالتها العلمية في ربوع افريقية وخارجها الى أن نقلها الملوك الفاطميون الى القاهرة عند تحولهم الى مصر ـ سنة ٣٦٢ هـ : ٩٧٣ م ـ فزادت هنالك ازدهاراً ، ونمت قوة وانتشاراً بفضل من رافقهم من العلماء الأفارقة ، وبفضل ما نقله الفاطميون معهم من تراث افريقية العلمي .

لكن نزوح بيت الحكمة من القيروان الى القاهرة لم يمنع من امتداد روحها ومريان تأثيرها في العقلية المغربية الى أن توقفت الحركة العلمية بسبب ما اعترى البلاد الافريقية من اختلال الأمن واضطراب الأحوال من جراء زحفة بني هلال على عهد دولة بني زيري الصنهاجيين .

وفي الوقت الذي كان تأثير « بيت الحكمة القيروانية » ينضوي كانت روحها العلمية تتمادى قدماً نحو المدوة الأوربية بواسطة أحد الافريقيين المسيحيين ، وأعني به (قسطنطين المشتهر بالافريقي) لولادته بقرطاجنة سنة ٤٠٦ هـ ١٠١٥ م فانه أخذ العلم بالقيروان عن البقية الباقية من رجال فكرة بيت الحكمة وأتقن علوم العربية والرياضة وخصوصاً الطب والفلك ، ثم انتقل الى مصر ، ومنها عاد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الى مسقط رأسه قرطاجنه ـ وكانت عندئذ قرية ضئيلة ـ ومنها قصد ايطاليا واستقر آخراً بمدينة (ساليرنو) ، واتصل هنالك بملك الزمان الذي ألحقه بدير جبل (كاسينو) الشهير ، ولم يلبث أن تولى رئاسة هذا الدير وحمل جماعة من الرهبان على الاشتغال بالعلوم العربية ، ورغبهم في ترجمة مصنفاتها لا سيما ما كان منها في العلوم الرياضية كالطب والهيأة والفلك والفلسفة الى اللغة اللاتينيـة ، فكان قسطنطين بذلك العمل في مقدمة نقلة تلك العلوم التي انفرد المسلمون عندئذ باتقانها ومعاناتها والابداع فيها .

وفي نظرنا ان هذا الحادث العظيم من أهم الأسباب لدخول علوم العرب الى العدوة الأروبية وانتشارها من جنوب ايطاليا الى الأصقاع الشمالية ، خصوصاً وقد صادف ان كان ذلك في مبتدأ ظهور الانبعاث الافرنجي في البحث عن علوم الطبيعة والهيأة وغيرها ، ويلاحظ هنا ان جل ما ترجمه (قسطنطين) من الكتب العربية الى اللاتينية أو حاول الوضع على غراره انما كان مستمداً من مصنفات أطباء قيروانيين خاصة ، مثل تأليف اسحاق بن عمران ، واسحاق الاسرائيلي ، واحمد بن الجزار ، كما انه اعتمد في الفلك وعلم الهيأة على تأليف الوزير ابي الحسن علي بن ابي الرجال القيرواني ، وفي هذا بلاغ !

ومات قسطنطين الافريقي في خلال عام ٤٨٠ هـ ١٠٨٧ م .

* * *

ومن هنا يتضح جلياً للباحث المنصف ان العرب لم يكونوا ليستأثروا بعلومهم ، ويستقلوا بنتيجة بحوثهم واكتشافاتهم ، بل كانوا يلقونها لكل راغب ، ويلقنونها ويلقنونها لكل طالب ، ولا يهمهم جنسه ومعتقده ، ومثل هذا العمل تتفاضل الأمم ، وتتفاخر الشعوب ، إذ كانت الرسالة العلمية أمانة يؤديها حاملها للبشر قاطبة من غير ارتقاب جزاء أو شكور ؛ ـ وبذلك قضت سنة الكون بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبناء الخليقة ليتم العمران ، ويسود التعارف والتعاضد والتوادد بين جميع أفراد بني الانسان .

* * *

ولا يفوتنا أن نستطرد هنا ذكر ذلك المعهد العلمي التطبيقي الذي أنشأه الأمير الصنهاجي : علي بن يحيى حفيد المعز بن باديس ، فانه أسس بمدينة المهدية حين تولى امارتها ـ سنة ٥٠١ هـ ـ مدرسة للعلوم الكيميائية ، وأشرف على سيرها وتعليمها حكيماً من أشهر حكماء العرب في وقته ، وهو الطبيب الفيلسوف الأديب (أمية بن ابي الصلت الداني) ، وقد ابتنى الأمير لذلك عمارة ذات قاعات متسعة أسماها « دار العمل » إشارةً لما كان يباشر فيها من تطبيق علم الكيمياء وفروعها ، وقد زودها بآلات تحليل المعادن والأحجار ، وتقطير الأعشاب والنبات ، وأدوات لتبخيرها وتحويلها بما يناسب معلومات ذلك العصر ، كما انه جعل حولها غرفاً وفيرة لإسكان الطلبة المعتنين وتمكينهم من التجرد للعمل ؛ لكن ـ للأسف الشديد ـ لم يعش هذا المعهد أكثر من ربع قرن أو خمسه فيما ذكر نقلة الأخبار .

* * *

وعودة الى سير العلم في بقية افريقية فقد انتصبت الدولة الحفصية بعاصمة تونس ـ وريثة قرطاجنة والقيروان معاً ـ في القرن السابع للهجرة ـ ومن أول تأسيسها انضاف الى أهل البلاد عنصر جديد أندلسي ، فقد هاجر الى حضرة افريقية ثلة ممتازة من كبار علماء العدوة الاسبانية وأدبائها ، ولم تزل هجرتهم الى تونس في نماء وازدياد وما منهم واحد الا وقد حمل اليها أوضاءهم وتقاليدهم في العلم والفن والصناعة حتى أصبحت تونس أم البلاد المغربية وقطبها الأكبر بلا منازع .

ومما أعانها على ذلك وجود « جامع الزيتونة » الذي أصبح أكبر جامعة اسلامية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عربية عرفها المغرب بأسره ، وقد أنبتت « الزيتونة » المباركة غير واحد من العلماء الأفذاذ في غير ما فن نذكر من بينهم : الكيميائي الشهير (احمد التيفاشي القفصي) ، والرحالة الكاتب (عبد الله التجاني) ، والمؤرخ الاجتماعي (ابن خلدون) ، والحقوقي الكبير (ابن عرفة) ، وغيرهم ، وغيرهم .

وقد دأبت « الزيتونة » من ذلك الحين وبدون انقطاع على اداء رسالتها العلمية مطردة النمو والازدهار ، زادها الله إنارة ونوراً

* * *

يسجل التاريخ مزية عظيمة لملوك بني حفص في ارساخ قدم الثقافة بالقطر الافريقي ، فانهم في مقدمة من أنشأ في المغرب العربي (المدارس) للتعليم العالي ، نظير ما جرى في بغداد العباسية وبلاد الشام الأيوبية ، وقد تضافر الأمراء والأميرات من الأسرة الحفصية على تحلية مدينة تونس بأكثر من عشر مدارس جليلة قامت بأوفر قسط في تكوين تلاميذ « الزيتونه » تكويناً جامعياً واسعاً الى أن استقل خريجوها بالخبرة التامة والتخصص في الشؤون القضائية والادارية ، فأسندت اليهم المناصب الرفيعة بين المحاكم والدواوين .

ويلاحظ أن حدوث المدارس كان باعثاً على حصر تعليم الفنون في « المتون » وتعويض دراسة الأمهات بالمختصرات وشروح الملخصات .

وان أول المنشآت التونسية للتعليم العالي المقتبس من النظم الاروبية الجديدة كان « المكتب الحربي » بباردو الذي أسسه احمد باي الأول في منتصف القرن الماضي ، فقد تسنى أن جلب اليه عدداً من الضباط المرشدين من ممالك مختلفة : من تركية ، وفرنسا ، وايطاليا ، وأخرجت المدرسة رجالاً كانت لهم المكانة الكبيرة في ميادين الادارة والسياسة والتعليم ، نخص منهم الوزير المصلح خير الدين ، والفريق حسين وزير المعارف ، والفريق رشيد وزير الحرب وقائد الجيش التونسي الذي شارك في حرب القرم ، وسواهم كثير .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد ترأس هذه المدرسة العليا جماعة من كبار الضباط الاروبيين منهم القائمقام (كاليقاريس) الايطالي ، الذي ترجم مع تلامذته الى العربية « سيرة نابليون » وهذا الكتاب من أول ما طبع في تونس ، كما عرّب تلاميذ المدرسة الحربية نحواً من أربعين مصنفاً في فنون الحرب من لغات مختلفة : تركية وفرنسية وايطالية ، ولا زال معظم هذه التراجم في حيز الوجود مخطوطاً ، وعسى الله أن يوفق يوماً ما مَن يجمع هذه الآثار القيمة في مجموعة تكون فخراً وعبرةً للناشئة القادمة .

* * *

ثم أحدثت « المدرسة الصادقية » بمساعي الوزير خير الدين ـ سنة ١٢٩٣ هـ ـ وحينئذ ألغي المكتب الحربي ، وقد تلقت « الصادقية » من سالفها مشعل النهضة التعليمية ، وأُتيح لها أن تهيئ في معملها المصل الملقح لعنصر الشباب ، فأيقظته من سباته وبعثته مقاماً محموداً من العرفان والتفكير ، وبذلك استحقت ولاء تونس والتونسيين .

* * *

هذه خلاصة الأشواط التي قطعتها تونس في سبيل التثقيف العالي الغالي ، وأملها اليوم أن تواصل سيرها بعزم ثابت لتسترجع المكان اللائق بها بين الأمم المخيمة على ضفاف البحر المتوسط ، وتثبت تفانيها في نشر أسباب الحضارة الصحيحة والتمدين ، وبذلك تكون قد أدت الرسالة المفروضة عليها ، ان شاء الله تعالى .

(تونس) حسن حسني عبد الوهاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net